﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ ﴾ [الرعد]

ولذلك نرى أن الآيتين قد نبَّهتا إلى مَقَامي الرجاء والخوف ، وعلى المؤمن أنْ يجمعَ بينهما ، وألاَّ يُؤجِّل العمل الصالح وتكاليف الإيمان ، وأن يستغفر من المعاصي ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يعامل الناس بالفضل لمن أخلص النية وأحسن الطوية . لذلك يقول الحديث :

« لمَّا قضى الله الخَلْق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي »[1] .

ثم ينقلنا الحق سبحانه من بعد الحديث عن الصفات الجلالية والجمالية في الغفران والرحمة والانتقام إلى مسألة حسيَّة واقعية تُوضِّح كل تلك الصفات ، فيتكلم عن إبراهيم - عليه السلام - ويعطيه البُشْرى ، ثم ينتقل لابن أخيه لوط فيعطيه النجاة ، ويُنزل بأهله العقاب .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ ﴾

وكلمة (ضيف) تدلُّ على المائل لغيره لقِرَىً[2] أو استئناس ، ويُسمونه « المُنْضوى » لأنه ينضوى إلى غيره لطلب القِرَى ، ولطلب

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٥١) ، والبخاري في صحيحه (٣١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وفي لفظ : « غلبت » .

(٢) قرى الضيف قِرىً وقراء : أضاف . واستقراني : طلب مني القرى . والقرى : طعام الأضياف . [لسان العرب - مادة : قرى] .

الأمن . ومن معانى المُنْضوى أنه مالَ ناحية الضَّوْء .

وكان الكرماء من العرب من أهل السماحة ؛ لا تقتصر سماحتهم على مَنْ يطرقون بابهم ، ولكنهم يُعلنون عن أنفسهم بالنار ليراها مَنْ يسير فى الطريق ليهتدى إليهم .

وكلنا قرأنا ما قاله حاتم الطائى للعبد الذى يخدمه :

أوْقد النارَ فإنَّ الليْلَ لَيْل قُرّ(١)
والريحُ يَا غُلامُ ريحُ صرّ(٢)
إنْ جلبت لنَا ضَيْفاً فأنت حُر

وهكذا نعرف أصلَ كلمة انضوى . أى : تَبِع الضوء .

وكلمة (ضيف) لفظ مُفْرد يُطلَق على المفرد والمُثنّى والجمع ، إناثاً أو ذكوراً ، فيُقال : جاءنى ضيف فأكرمته ، ويقال : جاءنى ضيف فأكرمتها ، ويقال : جاءنى ضيف فأكرمتهما ، وجاءنى ضيف فأكرمتهم ، وجاءنى ضيف فأكرمتهُنَّ .

وكلٌّ ذلك لأن كلمة « ضيف » قامت مقام المصدر . ولكن هناك من أهل العربية مَنْ يجمعون « ضيف » على « أضياف » ؛ ويجمعون « ضيف » على « ضيوف » ، أو يجمعون « ضيف » على « ضِيفان » .

ولننتبه إلى أن الضيفَ إذا أُطلِق على جَمْع ؛ فمعناه أن فرداً قد

---

(١) القر : البرد . والقُرُّ : اليوم البارد . وكل بارد : قُر . [لسان العرب ـ مادة : قرر] .

(٢) الريح الصر والصرصر : الشديدة البرد ، والشديدة الصوت العاصفة . [لسان العرب ـ مادة : صرر] .

جاء ومعه غيره ، وإذا جاءت جماعة ، ثم تبعتْهَا جماعة أخرى نقول : وجاءت ضيف أخرى .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نعلم أنهم ليسوا ضيفاً من الآية التى تليها ؛ التى قال فيها الحق سبحانه :

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

ونلحظ أن كلمة (سلاماً) جاءت هنا بالنَّصْب ، ومعناها نُسلِّم سلاماً ، وتعنى سلاماً متجدداً . ولكنه فى آية أخرى يقول :

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الذاريات]

ونعلم أن القرآن يأتى بالقصة عَبْر لقطات مُوزّعة بين الآيات ؛ فإذا جمعتَها رسمَتْ لك ملامح القصة كاملة .

ولذلك نجد الحق سبحانه هنا لا يذكر أن إبراهيم قد رَدَّ سلامهم ؛ وأيضاً لم يذكر تقديمه للعجل المَشْوىّ لهم ؛ لأنه ذكر ذلك فى موقع آخر من القرآن[1] .

إذن : فمنْ تلك الآية نعلم أن إبراهيم عليه السلام قد ردَّ السلام ، وجاء هذا السلام مرفوعاً ، فلماذا جاء السلام فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها منصوباً ؟

أى : قالوا هم : ﴿ سَلامًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الحجر]

وكان لا بُدَّ من رَدٍّ ، وهو ما جاءتْ به الآية الثانية :

---

(١) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾ [هود] .

﴿قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الذاريات]

والسلام الذى صدر من الملائكة لإبراهيم هو سلام مُتجدِّد ؛ بينما السلام الذى صدر منه جاء فى صيغة جملة اسمية مُثْبتة ؛ ويدلُّ على الثبوت .

إذ كان رَدّ إبراهيم عليه السلام أقوى من سلام الملائكة ؛ لأنه يُوضِّح أن أخلاق المنهج أنْ يردَّ المؤمنُ التحيةَ بأحسنَ منها ؛ لا أنْ يردّها فقط ، فجاء رَدُّه يحمل سلاماً استمرارياً ، بينما سلامُهم كان سلاماً تجددياً ، والفرق بين سلام إبراهيم - عليه السلام - وسلام الملائكة : أن سلام الملائكة يتحدد بمقتضى الحال ، أما سلام إبراهيم فهو منهج لدعوته ودعوة الرسل .

ويأتى من بعد ذلك كلام إبراهيم عليه السلام :

﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الحجر]

وجاء فى آية أخرى أنه :

﴿وَأَوْجَسَ[1] مِنْهُمْ خِيفَةً ..﴿٧٠﴾﴾ [هود]

وفى موقع آخر من القرآن يقول :

﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الذاريات]

فلماذا أوجسَ منهم خِيفةً ؟ ولماذا قال لهم : إنهم قوْم مُنْكَرون ؟ ولماذا قال :

---

(١) أوجس فى نفسه : أضمر الخوف فى نفسه . وأحس بالفزع . [القاموس القويم ٣٢٩/٢] .

﴿ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) ﴾ [الحجر]

لقد جاءوا له دون أن يتعرّف عليهم ، وقدَّم لهم الطعام فرأى أيديهم لا تصل إليه ولا تقربه كما قال الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ[1] وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) ﴾ [هود]

ذلك أن إبراهيم عليه السلام يعلم أنه إذا قَدِم ضَيْفاً وقُدِّم إليه الطعام ، ورفض أن يأكل فعلى المرء ألاّ يتوقع منه الخير ؛ وأن ينتظر المكاره .

وحين علِم أنهم قد أرسلوا إلى قوم لوط ؛ وطمأنوه بالخبر الطيب الذى أرسلهم به الله اطمأنتْ نفسه ؛ وفى ذلك تأتى الآية القادمة :

﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ[2] إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) ﴾

هكذا طمأنت الملائكة إبراهيم عليه السلام ، وهدَّأتْ من رَوْعه ، وأزالتْ مخاوفه ، وقد حملوا له البشارة بأن الحق سبحانه سيرزقه بغلام[3] سيصير إلى مرتبة أن يكون كثير العِلْم .

---

(١) نكر الشىء نكْراً ونُكْراً : جهله . نكره : جهله واستوحش منه ونفر منه ولم يأنس به . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً .. (٧٠) ﴾ [هود] أى : استوحش منهم لأنه لم يعرف حقيقتهم . [القاموس القويم ٢/٢٨٥] .

(٢) الوجَل : الفزع والخوف . [لسان العرب ـ مادة : وجل] .

(٣) المقصود بالغلام هنا هو إسحاق عليه السلام . قال تعالى : ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) ﴾ [هود] قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٥٢) : « من ههنا استدل من استدل بهذه الآية على أن الذبيح إنما هو إسماعيل ، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق ؛ لأنه وقعت البشارة به ، وأنه سيولد له يعقوب فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يُولَد له بعد يعقوب الموعود بوجوده » .

ويستقبل إبراهيم عليه السلام الخبر بطريقة تحمل من الاندهاش الكثيرَ ، فيقول ما ذكره الحق سبحانه :

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾

ونعلم أن الحق - سبحانه وتعالى - يخلق الخَلْق على أنحاء مُتعدِّدة ؛ حتى يعلمَ المخلوق أن خَلْقه لا ضرورة أن يكونَ بطريقة محددة ؛ بل طلاقة القدرة أن يأتى المخلوق كما يشاء الله .

والشائع أن يُولَد الولد من أبٍ وأم ؛ ذكرٍ وأنثى . أو بدون الأمرين معاً مثل آدم عليه السلام ، ثُمَّ خلق حواء من ذكر فقط ، وكما خلق عيسى من أم فقط ، وخلق محمداً ﷺ من ذكر وأنثى .

وفى الآية التى نحن بصددها نجد إبراهيم عليه السلام يتعجب كيف يُبشِّرونه بغلام ، وهو على هذه الدرجة من الكِبَر ، فى قوله تعالى :

﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ.. ﴿٥٤﴾﴾ [الحجر]

يعنى أن « على » هنا جاءت بمعنى « مع » أى : أنه يعيش مع الكِبَر ؛ ويرى أنه من الصعب أنْ يجتمعَ الكِبَر مع القدرة على الإنجاب .

وأقول دائماً : إن كلمة (على) لها عطاءاتٌ واسعة فى القرآن الكريم ، فهى تترك مرة ويأتى الحق سبحانه بغيرها لتؤدى معنًى مُعيناً ؛ مثل قوله تعالى :

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴿٧١﴾﴾ [طه]

والصَّلْب إنما يكون على جذوع النخل ؛ ولكن الحق سبحانه جاء بـ (فى) بدلاً من (على) ليدلَّ على أن الصَّلْبَ سيكون عنيفاً ، بحيث تتداخل الأيدى والأرجُل المَصْلوبة فى جذوع النخل .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ .. (٥٤) ﴾ [الحجر]

أى : أتُبشِّروننى بالغلام العليم مع أنِّى كبير فى العمر ؛ والمفهوم أن الكِبَر والتقدُّم فى العمر لا يتأتَّى معه القدرة على الإنجاب .

وهكذا تأتى « على » بمعنى « مع » . أى : كيف تُبشِّروننى بالغلام مع أنِّى كبير فى العمر ، وقد قال قولته هذه مُؤمناً بقدرة الله ؛ فإبراهيم أيضاً هو الذى أورد الحق سبحانه قَوْلاً له :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) ﴾ [إبراهيم]

وكأن الكِبَر لا يتناسب مع الإنجاب ، ويأتى رَدُّ الملائكة على إبراهيم خليل الرحمن :

﴿ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ (٥٥) ﴾

وكأن الملائكة تقول له : لسنا نحن الذين صنعنا ذلك ، ولكنَّا نُبلغك ببشارة شاءها الله لك ؛ فلا تكُنْ من اليائسين .

ونفس القصة تكررتْ من بعد إبراهيم مع زكريا ـ عليه السلام ـ فى إنجابه ليحيى ، حين دعا زكريا ربَّه أن يهبَه غلاماً :

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم]

وجاءته البشارة بيحيى ، وقد قال زكريا لربه :

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾ [مريم]

وإن شئت أن تعرفَ سرَّ عطاءات الأسلوب القرآني فاقرأ قَوْل الحق سبحانه رداً على زكريا :

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا[1] لَهُ زَوْجَهُ.. ۝٩٠﴾ [الأنبياء]

ولم يَقُل الحق سبحانه أصلحناكم أنتم الاثنين ؛ وفي ذلك إشارة إلى أن العطبَ كان في الزوجة ؛ وقد أثبت العلم من بعد ذلك أن قدرة الرجل على الإخصاب لا يُحدِّدها عمر ، ولكن قدرةَ المرأة على أن تحملَ مُحدَّدة بعمر مُعين .

ثم إذا تأملنا قوله الحق : ﴿وَوَهَبْنَا.. ۝٩٠﴾ [الأنبياء]

نجد أنها تُثبت طلاقةَ قدرة الله سبحانه فيما وَهَب ؛ وفي إصلاح مَا فسد ؛ فسبحانه لا يُعْوِزه شيء ؛ قادر جَلَّ شأنه على الوَهْب ؛ وقادر على أن يُهيىءَ الأسباب ليتحققَ ما يَهبه .

وهنا تقول الملائكة لإبراهيم :

---

(١) قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير : كانت عاقراً لا تلد ، فولدت . [تفسير ابن كثير ١٩٣/٣] وأصلح الأمر إصلاحاً : أزال فساده . [القاموس القويم ٣٨١/١] .

﴿ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ .. (٥٥) ﴾ [الحجر]

أى : أنهم ليسوا المسئولين عن البشارة ، بل عن صدق البشارة ؛ ولذلك قالوا له من بعد ذلك :

﴿ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) ﴾ [الحجر]

ويأتى الحق سبحانه بما رَدَّ به إبراهيم عليه السلام :

﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ(١) مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ (٥٦) ﴾

وهنا يعلن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنه لم يقنط من رحمة ربه ؛ ولكنه التعجب من طلاقة القدرة التى توحى بالوحدانية القادرة ، لا لذات وقوع الحَدث ؛ ولكن لكيفية الوقوع ، ففى كيفية الوقوع إعجاب فيه تأمل ، ذلك أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ يعلم عِلْم اليقين طلاقة قدرة الله ؛ فقد سبق أن قال له :

﴿ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

ولنلحظ أنه لم يسأله « أتحيى الموتى » ، بل كان سؤاله عن الكيفية التى يُحْيى بها الله المَوْتى ؛ ولذلك يسأله الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن .. (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

وكان رَدّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ :

﴿ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي .. (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

---

(١) القنوط : اليأس . وفى التهذيب : اليأس من الخير . [لسان العرب ـ مادة : قنط] .

وحدثتْ تجربة عندما أُمر إبراهيم بأن يأخذ[1] أربعة من الطير ثم يقطعهن ويلقى على كل جبل جزءاً ، ثم يدعوهن فيأتينه سعياً ، لذلك فلم يكُنْ إبراهيم قانطاً من رحمة ربه ، بل كان متسائلاً عن الكيفية التى يُجرى الله بها رحمته .

ولم تكن تلك المحادثة بين إبراهيم والملائكة فقط ، بل اشتركت فيه زَوْجه سارة ؛ إذ إن الحق سبحانه قد قال فى سورة هود :

﴿ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي[2] شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) ﴾ [هود]

وهكذا نجد أن القرآن يُكمل بعضُه بعضاً ؛ وكل لَقْطة تأتى فى موقعها ؛ وحين نجمع اللقطات تكتمل لنا القصة .

وهنا فى سورة الحجر نجد سؤالاً من إبراهيم - عليه السلام - للملائكة التى حملتْ له بُشْرى الإنجاب عن المُهمّة الأساسية لمجيئهم ، الذى تسبَّب فى أن يتوجَّس منهم خيفةً ؛ فقد نظر إليهم ، وشعر أنهم قد جاءوا بأمر آخر غير البشارة بالغلام ؛ لأن البشارةَ يكفى فيها ملَكٌ واحد .

---

(١) قال تعالى : ﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ [البقرة] فعمد إبراهيم إلى أربعة من الطير ، فذبحهن ثم قطعهن ونتف ريشهن ومزقهن وخلط بعضهن ببعض ثم جزأهن أجزاء وجعل على كل جبل منهن جزءاً ، وأخذ رءوسهن بيده ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهن فدعاهنّ ، كما أمره الله عز وجل فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش والدم إلى الدم واللحم إلى اللحم حتى قام كل طائر على حدته وأتينه يمشين سعياً . [ذكره ابن كثير فى تفسيره ١/٣١٥] .

(٢) البعل : الزوج والزوجة . قال الأزهري : سمى زوج المرأة بعلاً لأنه سيدها ومالكها . باعل القوم قوماً آخرين مباعلة : تزوّج بعضهم إلى بعض . [لسان العرب - مادة : بعل] .

أما هؤلاء فهم كثيرون على تلك المُهِمة ، فيقول سبحانه هذا السؤال الذى سأله إبراهيم ـ عليه السلام ـ :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

أى : ما هو الأمر العظيم الذى جئتم من أجله ؛ لأن الخَطْب هو الحَدث الجلل الذى ينتاب الإنسان ؟ وسُمِّى خَطْباً لأنه يشغل بال الناس جميعاً فيتخاطبون به ، وكلما التقتْ جماعة من البشر بجماعة أخرى فَهُمْ يتحدثون فى هذا الأمر .

ولذلك سُمِّيتْ رغبة الزواج بين رجل وامرأة وتَقدّمه لأهلها طَلَباً ليَدها « خطْبة » ؛ لأنه أمر جلَل وهَامّ ؛ ذلك أن أحداً لو نظر إلى المرأة ؛ ورآه واحدٌ من أهلها لَثار من الغَيْرة ؛ ولكن ما أن يدقَّ البابَ طالباً يدَها ، فالأمر يختلف ؛ لأن أهلها يستقبلون مَنْ يتقدّم للزواج الاستقبالَ الحسن ؛ ويقال : « جدع[1] الحلالُ أنفَ الغَيْرة » .

وهنا قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ للملائكة : ما خَطْبكم أيها المُرْسلون ؟ أى : لأىّ أمر جلَلٍ أتيتُم ؟

ويأتى الجواب من الملائكة فى قول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

ونعلم أن كلمة « القوم » مأخوذةٌ من القيام ، وهُم القوم الذين يقومون للأحداث ؛ ويُقصد بهم الرجال ، دون النساء لأن النساء لا يَقُمْنَ للأحداث ؛ والحق سبحانه هو الذى يُفصِّل هذا الأمر فى قوله :

(١) الجدع : القطع . وقيل : هو القطع البائن فى الأنف والأذن والشفة واليد ونحوها . [لسان العرب ـ مادة : جدع] .

﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ..(١١)﴾ [الحجرات]

فلو أن كلمة « القوم » تُطلَق على النساء ؛ لَوصفَ بها الحق سبحانه النساء أيضاً ؛ وذلك كي نعلم أن الرجال فقط هم الذين يقومون للأحداث ؛ ولنعلم أن للمرأة منزلتها في رعاية أسرتها ؛ فلا تقوم إلا بما يخصُّ هذا البيت .

وهنا أخبرتْ الملائكة إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنهم مُرْسَلون إلى قوم مُجرمين[1] ؛ وهم قوم لوط الذين أرهقوا لوطاً بالتكذيب وبالمعاصي التي أدمنوها .

ولكن الحق سبحانه يستثني آل لوط من جريمة قوم لوط ، فقد كانت أغلبية قوم لوط من الفاسدين ، فيقول سبحانه :

﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩)﴾

وهذا استثناءٌ لآل لُوطٍ من المجرمين[2] . والمُجرِم هو المُنقطِع عن الحق ، والجريمة هي الانقطاع عن الحق لانتصار الباطل ، وغلب اسم

---

(١) جرم الشيء جرماً : قطعه وغلب على فعل الشر . وأجرم الرجل : أذنب وعصى وكفر وعاند فهو مجرم . [القاموس القويم ١/١٢١] .

(٢) يقول الفخر الرازي متسائلاً : هل هذا استثناء متصل أو منقطع ؟ يقول صاحب الكشاف : إذا كان هذا الاستثناء من قوم كان منقطعاً ؛ لأن القوم موصوفون بالإجرام وآل لوط ليسوا مجرمين ، فاختلف الجنسان ، وهنا يكون الاستثناء منقطعاً ، وإن كان الاستثناء من الضمير في مجرمين كان متصلاً كأنه قيل : إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل لوط وحدهم (راجع الفخر الرازي في تفسير الآية) .

القـوم على الجمـاعـة المُجْـرمـين ، وهكذا كان الاسـتـثناء من هؤلاء المجـرمين . الذين أجـرموا فى حق منهج الله ، والقيـم التى نادى بها لوط عليه السلام .

وهكذا كان الإرسال للإنجـاء لمن آمن والإهلاك لمن أعرض ونأى بجانبه فى مهمة واحدة .

ثم يأتى استثناء جديد ؛ حيث يقـرر الحق سبحانه أن امرأة لوط سيشملها الإهلاك ، فيقول سبحانه :

﴿ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ[1] ﴾ (٦٠)

ونعلم فى اللغة أنه إذا توالتْ استثناءات على مُستثنى منه ؛ نأخذ المُسْـتثنى الأول من المُسْـتـثنى منه ، والمسـتثنى الثانـى نأخذه من المستثنى الأول ، والمستثنى الثالث نأخذه من المستثنى الثانى .

والمثل أن يقـول لك من تدينه « لك عشـرة جنيهـات إلا أربعة » أى : أنه أقرّ بأن لك ستـة جنيهات ؛ ولكنك تنظر إليه لـعلَّه يتذكر كم سدَّد إليك ؟ فـيقول : « لك إلا درهماً » وهـكذا يكون قد أقرَّ بسبـعة دراهم كَدَيْن ؛ بعد أنْ كان قد أقرَّ بـستة ؛ ذلك أنه قال : « لك عشرة جنيهات إلا أربعة » ، ثم أضاف : « إلا درهماً » .

وهكذا يكون قد استثنى من الأربعة الجنيهات التى قال إنه سدَّدها لك جنيهاً آخر ؛ وبذلك يكون ما سدده من دين ثلاثة جنيهات ، وبقى عنده سبعة جنيهات .

والحق سبـحانه هنا يستـثنى امرأة لوط من الذين اسـتثناهم من

---

(١) الغابرون : الباقـون المتخلفون فى القـرية للهلاك ، أو كانت من الماضـين الذاهبين أى من الهالكين . [القاموس القويم ٢/٤٧] .

قبل للنجاة[1] ، وهم آل لوط ، والملائكة التى تقول ذلك لم تُقدِّر الأمر بإهلاك امرأة لوط ؛ بل هى تُنفذ التقدير الأعلى ؛ فسبحانه هو مَنْ قدَّر وأمر :

﴿ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الحجر]

والغابر هنا بمعنى داخل ؛ أو هو من أسماء الأضداد ؛ وهى لن تنجو ؛ لأن مَنْ تقررتْ نجاتهم سيتركون القرية ؛ وسيهلك مَنْ يبقى فيها ، وامرأة لُوط من الباقين فى العذاب والاستثناء من النفي إثبات ؛ ومن الإثبات نفى ، فاستثناء امرأة لُوط من الناجين يلحقها بالهالكين .

وتنتقل السورة من إبراهيم إلى لوط ـ عليه السلام ـ فيقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

وهكذا قال لوط ـ عليه السلام ـ للملائكة عندما وصلوا إليه ، فقد كان مشهدهم غايةً فى الجمال ؛ ويعلم أن قومه يُعَانُون من الغلمانية[2] ، ويحترفون الفاحشة الشاذة ؛ لذلك نجد الحق سبحانه يقول عن معاملته للملائكة فى موقع آخر من القرآن :

﴿ سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [هود]

---

(١) قال صاحب الكشاف : هذا استثناء من الضمير المجرور فى قوله (لمنجوهم) وليس ذلك من باب الاستثناء من الاستثناء (راجع الفخر الرازى) .

(٢) الغلمانية : حب إتيان الغلمان والذكران من العالمين . والغُلْمة : شدة الشهوة .

ذلك أن لوطاً علم أن قومه سيطمعون فى هؤلاء المُرْد[1] ، لذلك ما أنْ جاءوه حتى أعلن لهم أنه غَيْر مرغوب فيهم ؛ ولم يرحب بهم ، ذلك أنهم قد دخلوا عليه فى صورة شبان تضىء ملامحهم بالحُسْن الشديد ؛ مما قد يُسبِّب غواية لقومه .

كما أنهم قد دخلوا عليه ، وليس على ملامحهم أىّ أثر للسفر ؛ كما أنهم ليسوا من أهل المنطقة التى يعيش فيها ؛ لذلك أنكرهم .

ويقول سبحانه ما جاء على لسان الملائكة لحظةَ أنْ طمانوا لوطاً كشفوا له عن مهمتهم :

﴿ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ[2] ﴿٦٣﴾ ﴾

وهكذا أعلنوا للوط سبب قدومهم إليه ؛ كى يُنزِلوا العقابَ بالقوم الذين أرهقوه ، وكانوا يشكُّون فى قدرة الحق سبحانه أنْ يأخذهم أَخْذَ عزيز مُقْتدر ، وفى هذا تَسْرية عنه .

ثم يُؤكِّدون ذلك بما أورده الحق سبحانه على ألسنتهم :

﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

أى : جِئْنا لك بأمر عذابهم الصادر من الحقِّ سبحانه ؛ فلا مجالَ للشكِّ أو الامتراء ، ونحن صادقون فيما نُبلِّغك به .

---

(١) غلام أمرد . والمرْد : التمليس . وقال ابن الأعرابى : المرَد : نقاء الخدَّيْن من الشعر ونقاء الغصن من الورق . والأمرد : الشاب الذى بلغ خروج لحيته وطَرَّ شاربه ولم تبد لحيته . [لسان العرب ـ مادة : مرد] .

(٢) امترى فى الشىء : شكَّ فيه ولم يستيقن . وتمارى فى الشىء : تشكك فيه . والمرية : الجدل والشك . [القاموس القويم ٢/ ٢٢٤] .

ويقولون له من بعد ذلك :

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

أى : سرْ أنت وأهلك فى جزء من الليل . ومرة يُقَال « سرى » ، ومرة يُقَال « أسرى » ؛ ويلتقيان فى المعنى . ولكن « أسرى » تأتى فى موقع آخر من القرآن ، وتكون مُتعدِّية مثل قول الحق :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً .. ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء]

وقولهم هنا (أسر بأهلك[1]) هو تعبير مُهذَّب عن صُحْبة النساء والأبناء . ونجد فى ريفنا المصرى مَنْ لا يتكلم أبداً فى حديثه عن المرأة أو البنات ؛ فيقول الواحد منهم « قال الأولاد كذا » ، فكأن اسم المرأة مبنىٌّ على السَّتْر دائماً ، وكذلك نجد كثيراً من الأحكام تكون المرأة مَطْمورة فى حكم الرجل إلا فى الأمر المُتعلِّق بها .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الحجر]

وكلمة « قِطع » هى اسم جمع[2] ، والمقصود هو أن يخرج لوطٌ

---

(١) الأهل هم الذين اتبعوا لوطاً فى منهج الله ، ويخرج من الأهلية امرأته لعصيانها كما نُفيت الأهلية عن ابن نوح بعصيانه . قال الله تعالى : ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [هود]

(٢) اسم الجمع هو اسم يدل على الجمع ، ولكنه ليس جمعاً سالماً سلمت فيه بنية المفرد من التغيير ، وليس جمع تكسير ، تغيرت فيه بنية المفرد ، ويفرق بينه وبين مفرده بالتاء ، مثل (تمر) فهذا اسم جمع مفرده (تمرة) ، و (عنب) مفرده (عنبة) ، كذلك قطع هنا اسم يدل على الجمع مفرده (قطعة) ، وليس من أنواع الجموع المعروفة .

بأهله فى جُزْء من الليل ، أو من آخر الليل ، فهذا هو منهج الإنجاء الذى أخبر به الملائكة لوطاً ، ليتبعه هو وأهله والمؤمنون به ، وأوصوْه أن يتبعَ أدبار قومه بقولهم :

﴿ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ .. (٦٥) ﴾ [الحجر]

أى : أن يكون فى المُؤخّرة ، وفى ذلك حَثٌّ لهم على السُّرعة .

وكان من طبيعة العرب أنهم إذا كانوا فى مكان ويرحلون منه ؛ فكل منهم يحمل رَحْله على ناقته ؛ وأهله فيها - فوق الناقة - ويبتدئون السير ، ويتخلف رئيس القوم ، واسمه « مُعقِّب » كى يرقُب إنْ كان أحد من القوم قد تخلَّف أو تعثَّر أو ترك شيئاً من متاعه ، ويُسمُّون هذا الشخص « مُعقِّب » .

وهنا تأمر الملائكة لوطاً أن يكون مُعقّباً لأهله والمؤمنين به ؛ لِيحثَّهم على السير بسرعة ؛ ثم لِينفذ أمراً آخرَ يامره به الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ .. (٦٥) ﴾ [الحجر]

وتنفيذ الأمر بعدم الالتفات يقتضى أن يكون لوط فى مُؤخّرة القوم ؛ ذلك أن الالتفاتَ يأخذ وَقْتاً ، ويُقلِّل من سرعة مَنْ يلتفت ؛ كما أن الالتفاتَ إلى موقع انتمائهم من الأرض قد يُثير الحنين إلى مواقع التَّذكار وأرض المَنْشأ ، وكل ذلك قد يُعطِّل حركة القوم جميعهم ؛ لذلك جاء الأمر الإلهى :

﴿ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) ﴾ [الحجر]